كنوز البحار وغرائب انتشالها

١

«كلها لعب بين يديك يا بحر تخفضها وتعليها»
«تعزّها وتذلّها تتلاعب بها كأنشاء لا فرق عندك»
«بين سفن الارمادا واساطيل طرف الغار»
الشاعر بيرون

فكم سفينة مرفوعة الاعلام بنيت على احدث الاساليب واكملها لسلامة المسافرين وراحتهم تلقتها الامواج الهائجة والعجج المتلاطمة او اصابتها قنابل العدو او اصطدمت بباخرة اخرى او صخر ناتئ او ركام من الجليد تحت سرادق من الضباب الكثيف فغرقت بمن عليها وما تحويه من بضائع ونقود . فهل يرضى الانسان ان ينتزع البحر منهُ هذه الاموال من غير ان يحاول انتشالها ؟

ان قراء الصحف اليومية في مصر لا يزالون يذكرون ما تناقلتهُ الجرائد عن الغواصين اليابانيين الذين انتشلوا في الصيف الماضي نحو مائة الف جنيه ذهباً بعد ما مضى عليها عشر سنين في قاع البحر بين منارة البرلس وبورت سعيد ، غرقت في سفينة يابانية اصابتها طرايد الالمان

ويقول العارفون ان كنوزاً تساوي خمسة ملايين جنيه غرقت حول الجزائر البريطانية وحدها. وعندهم ان جانباً كبيراً منها لا امل في انتشالهِ الآن وانهُ اذا لم يُنتشل الباقي في وقت قريب فُقد الى الابد لان لياه البحر فعلاً يتلف الاشياء حتى الحديد البواخر وقولاذها فلا يبقى سليماً من فعل ماء البحر سوى الذهب والفضة وهما ما يهتم بهِ الغواصون فينشلونهُ اذا ساعدتهم الاقدار

تقول اذا ساعدتهم الاقدار لان كلّ باخرة يقصد انتشالها تختلف احوالها عن احوال البواخر التي اشتروا قبلاً بانتشالها او نشل كنوزها . فالمد والجزر والمجاري المائية العميقة وهبوب الرياح وثورة العواصف وهياج البحر عوامل لها شأن كبير في نجاح الغواص او فشلهِ . فقراءهُ يضع الخطة الكاملة لنشل احدى السفن الغارقة او على الاقل لنشل ما فيها من الاموال ولكنهُ لا يجزم بمقدرتهِ على تنفيذها لانهُ يعلم عن

خبرة ان الغواصين قد يبدأون عملهم في احوال جوية موافقة ويسير العمل على ما يرومونهُ فيهِ من السهولة والاقبال ثم تمضي ايام فاذا هم امام عاصفة ثائرة وبحر هائج متلاطم الامواج فيكفّون عن العمل والعجاج اقرب اليهم من حبل الوريد يتوقعون الفرص حتى تسكن الرياح وتهدأ اللجج فيعيدوا الكرة يحدوهم الامل بالتوفيق ويدفعهم العزم على الاقدام والمثابرة

لذلك ترى ان الرجال الذين يعالجون هذه الاعمال قد اتصفوا ببعد النظر وقلة الكلام والصبر الذي لا يثنيهِ الفشل عن السعي المتواصل . انهم يحسبون حسابًا لكل امر عملي وعملي دقيق فيما يعزمون عليهِ ولكن حالة الجوّ فوق طاقة حسابهم . انهم يتمنون ان يتاح لهم جو رائق وبحر هادئ ولكن متى ثارت العاصفة حاربوها بجهدهم الى ان يروا ان الجهد ذاهب عبثًا فيكفّوا

واليك حادثة جرت منذ سنتين او ثلاث سنين تدل على ما للقدر من نصيب في اعمال الغواصين . غرقت باخرة فاستقرت على قمة صخر تاقئ من قاع البحر تحيط بهِ من كل الجوانب اغوار بعيدة المدى . فاسرع الغواصون الى المكان الذي غرقت فيهِ فوجدوها مستقرة على ذلك الصخر ولكنها غير ثابتة القرار . ولذلك عزموا ان يبدأوا عملهم بتدعيمها حتى تثبت في مكانها فيستطيعوا مباشرة السعي لانتشالها . فعلقوا بها من كل الجهات سلاسل متينة من الحديد وفي اطراف السلاسل ربطوا مراسي تثبت السفينة في مكانها

ثم شرعوا في عملهم يسرعون فيهِ ما يستطيعون وهم يراقبون الجو والبحر وكلّ خوفهم ان تثور اللجج وتتلاطم الامواج قبل ان يتم النجاح . ومضى عليهم شهر والجو والبحر يواليانهم وفي احد الايام اخذ النسيم العليل يتحول ريحًا شديدة والبحر الساكن يرغي ويزبد فداخلهم الخوف من قرب هبوب العاصفة وهياج البحر ولكن الريح لم تلبث ان همدت فضاعفوا الجهد مدى اسبوعين آخرين تمّ لهم في نهايتهما الاستعداد لدفع الماء من داخل السفينة واحلال الهواء محلهُ حتى يخفّ وزنها ويسهل تعويمها وامّ الغواصون سفينتهم ليبيتوا ليلتهم وهم فرحون بنجاح مساعيهم مؤملون الحصول على جزاء اتعابهم في الغد

ولكن الليل لم ينقضِ حتى كانت الهواء الذي والاهم ستة اسابيع متوالية اخذ يخونهم في آخر لحظة فهبّ في الليل عاصفًا شديدًا وتعالت الامواج وانخفضت وهي سيف تعاليها وانخفاضها تضرب جوانب السفينة وتلطمها فتقطعت السلاسل التي تثبتها في مكانها

واحدة واحدة كأنها خيوط العنكبوت وما زالت الامواج تضربها على هذا المنوال حتى قطعتها كلها فلطمتها حينئذٍ موجة عنيفة هوت بها من ثمة ذلك الصخر الى غور في البحر لا قرارة له

تأمل شعور هؤلاء الغواصين حينئذٍ وقد انتزع البحر من قبضتهم كنزاً ثميناً وافقدهم فوق ذلك كثيراً من السلاسل والمراسي وما بذلوه من الجهد ستة اسابيع متوالية. ولكنهم ماذا فعلوا — وأوا وجوههم شطر اقرب مرفإ اليهم يحدوهم الامل بان التوفيق يسير في ركابهم في المستقبل

ان كثيراً من الناس كانوا يتحدثون في الصيف الماضي عن انتشال النقود اليابانية من قاع البحر وكان في حديثهم ميل الى الاعتقاد بان هؤلاء الغواصين نالوا بغيتهم على اهون سبيل. والحقيقة ان عمل الغواص من اصعب الاعمال واشقها حافل بالمخاطر الاهوال ولكن البحارة الذين يجوبون البحار عموماً والغواصين الذين غالبوا لجة فغلبوها تارة وغلبتهم اخرى، رجال لا يحفلون بما في عملهم من المخاطر التي تحيق بهم ولكنهم لا ينسون ان يحسبوا لها حساباً في خططهم لانهم كثيراً ما رأوا سفناً تغريغ الواحدة منها ١٠ آلاف طن اواكثر ترفعها الامواج وتخفضها ثم تضربها على صخر من الصخور فتحطمها تحطيماً وكثيراً ما شاهدوا آلات بخارية قوتها ٧٠ الف حصان تجاهد عبثاً لكي تثبت امام قوى الامواج والامواج « تتلاعب بها كما تشاء »

لذلك يجب ان يكون الغواصون والمشتغلون بانتشال الكنوز او نشل السفن رجالاً ذوي عزم واقدام لا يتطرق الى عزائمهم القنوط . بل يحدوهم الامل . يجب ان لا يكتفوا بالشجاعة الجسدية التي يقتحمون بها اهوال البحار بل يجب ان يدرعوا بالشجاعة الادبية التي تقيهم من اليأس والارتباك فيقتنصوا النصر من مخالب الفشل

ان رجالاً كهؤلاء استطاعوا ان ينشلوا الباخرة « هيباشا » التي غرقت قرب جبل طارق . حاولوا اربع مرات متتابعة ان ينشلوها وكانوا كلما رفعوها الى سطح الماء تعود فتغرق كانما بسحر ساحر . على انهم لم يقنطوا من النجاح بل فعلوا ما فعله روبرت بروس ملك اسكتلندا من قبلهم ، اعادوا الكرة عليها مرة خامسة فكان النجاح حليفهم

وسنورد في اجزاء المقتطف التالية اشهر ما ذكر عن نشل السفن من قاع البحر او انتشال ما فيها من الكنوز اذا تعذر نشلها برمتها فانها جمعت الى الفكاهة العلمية والتاريخية دروساً بليغة في الصبر والاقدام